الصحيفة الهندية في ضوء النقد البلاغي عند العرب

د. محمد عيسى الحوراني

مقدمة

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على القضايا النقدية والبلاغية في الصحيفة الهندية، وهي صحيفة صغيرة الحجم اتخذت من كتاب " البيان والتبيين" مستقراً، فنالها ما ناله من الإشارة وحسن التبيان، إذ كان منهلا ثراً من مصادر الأدب والنقد والبلاغة، تدارسه السلف كما تدارسه الخلف، وما زال من أبرز مصادر الدارسين والمتأدبين.

وأيا يكن، فإن مجال هذا البحث هو دراسة الصحيفة الهندية، التي تتبدى بثوب بلاغي، وكأنها منوطة بهذا الإطار فقط، فكانت المهمة في الكشف عن القضايا المخبوءة فيها للوقوف على أطر أكثر عمقاً من مجرد الإشارات البلاغية، والوقوف على التكامل بين النقد والبلاغة، وإثبات أن لا انفصام بينهما، وأن هذه المعارف والعلوم هي ميراث الأمم، تنسرب إلى الشعوب لتصبغها بصبغة إنسانية عامة، لا تكون فيها حكراً على أمة دون أخرى.

ولعل أبرز الصعوبات التي واجهت هذه الدراسة هي كثرة الإشارات إلى نص الصحيفة، وضحالة الدراسات التي كتبت عنها، إذ لم أجد بحثاً مستقلاً يعالجها، وإن كان كثير من الكتب يشير إليها وينقل نصها غالباً دون تعليق.

وحتى المصدر الرئيس لهذه الصحيفة ينقل نصها دون تحليل أو مناقشة، في حين علّقتْ على بعض أجزائها مصادرُ أو دراسات أخرى، وشرحَها شوقي ضيف في كتابه " البلاغة تطوّر وتاريخ".

ومع أنّ الصحيفة كانت كثيراً ما ترد إلى جانب صحيفة بشر بن المعتمر، إلا أنّ الأخيرة حظيت بما لم تحظ به الأولى من الدراسة والتحليل والمعالجة قديماً وحديثاً.

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث تسبقها المقدمة وتليها الخاتمة، فكان المبحث الأول تحت عنوان: تعريف الصحيفة وتوثيقها، حيث عرضت بإيجاز إلى وصفها وتوثيقها ومصادرها وموضوعها وأهميتها وطبيعة العصر الذي ترجمت فيه.

وجاء المبحث الثاني تحت عنوان: القضايا النقدية والبلاغية التي تطرحها، فعمدت إلى تحليل الصحيفة، ووقفت على القضايا النقدية والبلاغية التي قدمتها.

أما المبحث الأخير فقد جاء تحت عنوان: أثر الصحيفة في النقد الأدبي والبلاغي عند العرب، وقفت فيه على مجاورتها لصحيفة بشر، سواءٌ أكان ذلك من خلال التجاور في الكتاب، أم من خلال التجاور الموضوعي، مما جعل ذكرهما يقترن معاً في كثير من الدراسات، ومن ثم عرضت لأثرها في الخطابة والفصاحة والبلاغة، لأخرج بعدها إلى دمجها في الإطارين النقدي والبلاغي، ومن ثم الوقوف على مكانتها عند الدارسين قديماً وحديثاً.

وختمت الدراسة بعرض أهم النتائج التي توصلت إليها، وعرضت بعدها قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأوّل
تعريف الصحيفة الهندية وتوثيقها

وصف الصحيفة:

هي صحيفة مختصرة لا تربو على عشرين سطراً، تعالج جملة من القضايا البلاغية والنقدية، وعلى الرغم من أنّ ظاهرها قد يبدو مقصوراً على البلاغة فإنّ النقد والبلاغة متجاوران، وكانا يدلاّن على وحدة واحدة لا تنفصل بحال.

توثيق الصحيفة:

الصحيفة مترجمة عن الهندية، لا

نعرف عن نشأتها الأصلية في موطنها أكثر مما نقله لنا الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين"، إذ يقول:

"قال معمّر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند، مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها" ١.

فالجاحظ إذاً ينقل الكلام عن أبي الأشعث معمر، في أيام يحيى بن خالد، والسؤال الذي وجهه أبو الأشعث لبهلة يدل على اهتمام الأول بالبلاغة والأدب، في حين نحن لا نعرف بهلة هذا، أهو من الأطباء الذين استقدموا؟ أم كان موجوداً أصلاً؟ ويبدو أنه عارف بالعربية لأن حجته في عدم المقدرة على ترجمتها هي عدم إتقانه صناعة الترجمة أو صناعة البلاغة، مما جعله يخشى الوقوف على دقيق معانيها وخصائصها، وهذا ما دعا أبا الأشعث – الذي يبدو أنه كان مهتماً بالشأن البلاغي- إلى ترجمة الصحيفة لدى التراجمة المختصين.

وأياً يكن فإن النص المترجم الذي نقله الجاحظ يعدّ الوثيقة الأولى لنص الصحيفة الهندية في اللغة العربية.

مصادر الصحيفة:

نقلها الجاحظ في " البيان والتبيين" في معرض حديثه عن البلاغة، إذ أورد آراء بعض الأمم فيها فتحدث عن تعريف كل من الفارسي والرومي والهندي لها٢، ثم عرض آراء لآخرين في مظاهرها، ومن ثم انتقل إلى هذه الصحيفة، وأورد بعدها صحيفة بشر بن المعتمر في باب (ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء) لتصبح منذ ذلك الوقت صنواً لصحيفة بشر، إذ كثيراً ما يقترن ذكر الصحيفتين في المصادر والمراجع لما بينهما من قواسم مشتركة، مع أن صحيفة بشر حظيت باهتمام وعناية كبيرين لم تحظ بمثلهما الصحيفة الهندية.

"وطريقة الجاحظ في تقديمها تلفت النظر، فهو يمهد لها بذكر ملابسات تاريخية تحملنا على التصديق بكونها حدثاً تاريخياً واقعاً. فقد أشار إلى وجودها شخص هندي الأصل (بهلة) ذكر اسمه مقترناً بأطباء هنود استجلبهم البرامكة. وإشارة (بهلة) إلى الصحيفة كانت جواباً على سؤال يستكشف حد البلاغة عند الهنود، ويقوي الظن بوجودها إحجامه عن ترجمتها لخروجها عن اختصاصه، واستعانة السائل بمترجمين للوقوف على محتواها. وبعد استعراض الظروف (التاريخية) يورد الجاحظ نص الرسالة مترجماً. " ٣

والجاحظ بعد أن أورد نص الصحيفة لم يعلق عليها، ولم يعرض آراء حول ما جاء فيها. في حين عرضها العسكري في " الصناعتين" وذيّل بتعليق مقتضب حول بعض ما جاء فيها.

وبمقارنة النص عند العسكري به عند الجاحظ لا نجد اختلافاً يستحق الذكر، وهو برأينا إما أن يكون منقولاً من نص الجاحظ، وإما أن يكون مصدرهما في الترجمة واحداً، والمهم هنا أن لا خلاف في نص الوثيقة، وكذا نقلها ابن قتيبة في " عيون الأخبار"، والحصري في " زهر الآداب" ، كما تناقلتها كتب النقد والبلاغة الحديثة.

موضوع الصحيفة:

عرفنا أنّ هذه الصحيفة جاءت جواباً على سؤال عن البلاغة عند الهند، وبالتالي فإن موضوعها البلاغة، وهي تتقاطع مع دلالات الفصاحة والنقد عند العرب قديماً.

والبلاغة في المعنى المعجمي تدل على الوصول والانتهاء ٤، وفي الاصطلاح يعد من أشهر معانيها الفصاحة ٥، وقد عرفها العرب في الجاهلية كما عرفوها في الإسلام، سواء أكان ذلك في شعرهم أم في خطبهم " إذ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا أحياناً يسوقون ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في البلاغة العربية" ٦.

ومن هنا فقد تطابق ما جاء في الصحيفة من حد البلاغة مع ما تتطلبه الخطابة والفصاحة عند العربي، فتحدثت عن الخطيب وأدواته، وخطبته وكيفيتها، وسامعيه ومستوياتهم.

أهمية الصحيفة:

تنبع أهمية الصحيفة من جملة من القضايا النقدية والبلاغية التي تطرحها، إذ إنها تكاد تكون إطاراً عاماً تندرج فيه خضائص البلاغة الناجعة، وسمات البليغ المتميز، ولا تقل القيمة النقدية عن القيمة البلاغية، ولكن النقد والبلاغة سابقاً صُبّا في بوتقة واحدة، ولم ينفصما عن بعضهما سواء أكان ذلك عند الكتّاب أنفسهم أم عند المتلقين.

وأشرنا إلى عدد ممن تناولها بعد الجاحظ من أمثال العسكري وابن قتيبة، فضلاً عن عدد من المحدثين ونظراً لأن الصحيفة وردت في هذه الكتب في أبواب البلاغة والحديث عن البلغاء، فقد توهم البعض أنها لا تصب إلا في الإطار البلاغي، مما شكّل حافزاً لهذا البحث لكشف الجوانب النقدية فيها.

وهي في هذا الإطار دليل على المثاقفة التي كانت ميدان المعارف والعلوم، وهي " من أبرز السياقات ومن أوضحها دلالة على امتزاج الثقافة العربية بثقافات أجنبية واستفادة البلاغة في أطوارها الأولى من موروث الحضارات الأخرى." ٧

طبيعة العصر الذي ترجمت فيه الصحيفة:

شهدت الحقبة التي عاشها الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) انفتاحاً ثقافياً كبيراً، فقد أخذت " الثقافة تعظم وتتسع وتشمل فروع المعرفة كلها، ولا تقتصر على الثقافة الدينية والأدبية، ورأينا الثقافات الأجنبية تتدفق على المملكة الإسلامية من فارسية وهندية ويونانية، ورأينا كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم حتى اللغة والأدب والنحو والصرف" ٨.

ومن هنا فقد كان ذلك العصر بوابة لتقعيد كثير من المعارف التي عرفها العرب دون أن يضعوا لها قاعدة، فكان للترجمة عن اللغات الأخرى أثرها الأكبر في ازدهار المدّ الفكري والأدبي آنذاك، " فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها، فمن قرأ هذه الكتب وعرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم عرف آلية البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة" ٩.

ولعل في تلك الإشارات ما يبين عظم حركة النقل والترجمة التي حدثت في ذلك العصر، والمثاقفة التي جرت بين الأمم " وبالطبع فإن مثل هذا التأثر والتأثير هو دليل صحة وتفاعل خلاق، وقد أفاد النقد الأدبي من هذا التلاقح الفكري، يدل على ذلك تلك المصطلحات التي عرفت في العلوم العقلية والنقلية" ١٠.

المبحث الثاني
القضايا النقدية والبلاغية التي تطرحها الصحيفة

نصّ الصحيفة:

قال معمّر أبو الأشعث : قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطبّاء الهند، مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصنعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها.

قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها:

أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلّم سيد الأمَة بكلام الأمَة، ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عليماً، ومن قد تعوّدَ حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجهة الاستطراف والتظرف. قال: ومن عِلم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال له وَفقاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصّراً ولا مشتركاً ولا مضمّناً، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عَقدَ عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقاً، ولهول تلك المقامات معاوداً. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصداً، فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمَنها فأودعها تهاون الآمنين، ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل.

تحليل الصحيفة:

تقسم الصحيفة البلاغةَ من حيث حدودها إلى ثلاثة أقسام: الأوّل البليغ (الخطيب)، والثاني النصّ البلاغيّ، والأخير السامع أو المتلقي. وكأني بهذا التقسيم يرتد إلى أطراف الخطبة المكوّنة من الخطيب المشافه ونصّ الخطبة

والجمهور المستمع.

وفي اعتقادي أن محتوى الصحيفة هنا موجّه إلى الخطيب، وما قدّمته من شؤون بلاغية هي الأدوات التي ينبغي للخطيب أن يتسلح بها، وما جاء فيها من تخيّر اللفظ والمعنى، ومراعاة مقتضى الحال هو المحتوى النقدي والبلاغي الذي يطمح صاحبه إلى إيصاله للجمهور المستمع (المتلقي) عموماً.

وأياً يكن فقد ارتبط مفهوم البلاغة في أدبنا العربي بمفهومي الفصاحة والخطابة، وذلك لأنها من أهم الأدوات التي ينبغي على الخطيب امتلاكها، ليكون مقنعاً ومفهِماً ومؤثراً.

تبدأ الصحيفة بالحديث عن آلة البلاغة، وتعد تلك الآلة هي أول البلاغة، والآلة هنا- كما توحي الصحيفة- تصبّ في أربعة محاور، يمكن أن نجملها في التالي:

١) امتلاك الصنعة، وذلك بأن يكون الخطيب قد نظر في صناعة المنطق على جهد الصناعة والمبالغة لا على جهد الاعتراض والتصفح، وأن يكون تصفحه لمصادره في حجم تصفحه لموارده.

٢) أن يكون مكتمل الأدوات الصوتية كالأسنان وغيرها، وتكون لغته نقية.

٣) أن يقوم بتدريب ورياضة، حتى تستجيب له المعاني، ويعتاد هول المقامات ليصبح رابط الجأش قليل الخرق والدهشة.

٤) أن يجمع بين الطبع والدربة. ١١

وآلة البلاغة تلك هي الركيزة الأساسية التي نحكم من خلالها على بلاغة الخطيب، تلك البلاغة التي يكون بعضها بفعل ربّاني لا يقدر العبد على اكتسابه كجودة القريحة وطلاقة اللسان، ومنها ما هو حاصل بالعلم والاطلاع كمعرفة الألفاظ والمقامات، ومنها ما هو حاصل بالدربة والرياضة كرباطة الجأش وسكينة النفس ١٢.

وإذا عالجت الصحيفة امتلاك الخطيب لآلة البلاغة فهي تعرّج على نصّ الخطبة، فتعمد إلى اللفظ، فمدار البلاغة على تخيره، وتخيره أصعب من جمعه وتأليفه ١٣ ولا تنقح تلك الألفاظ إلى درجة توصلها إلى البعد عن الاستعمال، كما لا تصفّى ولا تُهذّب مما يشوبها إلا إذا اقتضى ذلك وجود متلقّ مؤهل حذق، فالتكلم " بالكلام المصفى المنقح إنما يوجّه لمن خبر المعاني من الحكماء والفلاسفة أو قل لعلية المثقفين ممن لا يحتاجون إلى إطناب، ومن يعرفون حقوق الكلام، ويسقطون مشتركه الذي قد يوهم بمعان غير معناه ممن حذقوا صناعة المنطق. " ١٤

وفي مجال اللفظ أيضاً فإنّ الكلمة يجب أن تستخدم بدقّة فلا يدخلها الفضول ولا الاشتراك.

وفي نصّ الخطبة أيضاً تقف الصحيفة على المعنى فتطلب من الخطيب ألا يدقق المعاني كل التدقيق " لأن الغاية في تدقيق المعنى سبيل إلى تعميته، وتعمية المعنى لكنة، إلا إذا أريد به الإلغاز، وكان في تعميته فائدة مثل أبيات المعاني" ١٥

ومن حقّ هذه المعاني أن يكون الاسم طبقاً لها غير زائد ولا ناقص، ولا يكون فاضلاً ولا مقصّراً، وهو ما عرف بمطابقة اللفظ والمعنى.

وفي معالجتها لجمهور المتلقين، تؤمن الصحيفة بالمرسل ونص الرسالة والمرسل إليه، والأخير قد يكون على درجة عالية من الثقافة ممن تعود حذف فضول الكلام، فهذا هو الذي تُهذب له الكلمات، وأما إذا كان من العامة فلا داعي للتهذيب ولا الحذف " وإذا كان معرض الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب" ١٦.

وما تريد الصحيفة أن تبينه هنا هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فلكل مقام مقال.

وفي النهاية تعود الصحيفة إلى الخطيب، فتطلب إليه أن يربط بين أجزاء الكلام، ويصل آخره بأوّله، ولا يبالغ في ثقته بنفسه لدرجة الطمأنينة، كما لا يبالغ في تقريع نفسه واتهامها بالتقصير، وهو أشبه ما يكون بتعزيز الخطيب وبناء ثقته بنفسه بغير إفراط ولا تفريط.

من خلال ذلك تكون الموضوعات التي طرحتها الصحيفة متمثلة بالخصال التي يجب توفرها في الخطيب، والهيئة التي يجب أن يظهر عليها أمام الناس هذا الخطيب الذي يجب أن يكون مضطلعاً بالعلوم الأخرى، مراعياً منازل المخاطَبين وطبقاتهم، محكماً بناءَه، رابطاً أوله بآخره، خبيراً في اختيار ألفاظه، واثقاً في نفسه في غير إفراط ولا تفريط ١٧.

القضايا النقدية والبلاغية التي تطرحها الصحيفة:

١) الملاءمة: ويقصد بها موافقة الألفاظ

للمعاني، فتُختار الألفاظ الجزلة والعبارات القوية للفخر والحماسة، وتختار الكلمات الرقيقة للغزل والمدح١٨، وأن يكون اللفظ لباس المعنى فلا يخرج عنه إلى سواه، وأن يكون مطابقاً لمقتضى الحال.

٢) الطبع والصنعة: فالطبع هو الموهبة والبديهة والمقدرة التي جبلت عليها النفس، وهي لا ترقى إلى النضج إلا إذا رافقتها الدربة والكد والجهد والعمل على التحسين والتطور، والصحيفة تجمع بين الأمرين وهما أوّل آلة البلاغة عند الخطيب، والآلة " ما لا وجود ولا تمام للبيان، أو ما في معناه من بلاغة وغيرها، إلا بوجوده وتمامه، ويلزم من نقصانه نقصانُه، بدنياً كان ذلك الشيء أم نفسياً، ومقاليّاً كان أم مقاميّاً" ١٩.

٣) الغموض والوضوح: يعدّ الوضوح مقياساً لجودة المعنى، لأنّ المراد من اللفظ هو الوصول إلى المعنى، لذا طالبت الصحيفة الخطيب ألا " يتعمق في معانيه حتى لا يفضي به ذلك إلى شيء من الغموض، وأيضاً فإنّه ينبغي أن لا يسرف في تنقيح لفظه حتى لا يخرج إلى أساليب غريبة" ٢٠.

٤) الاشتراك اللفظي: أشارت الصحيفة إلى مشتركات الألفاظ ويقصد بها " الإبانة عن معنى فيأتي بألفاظ لا تدل عليه خاصة، بل تشترك معه فيها معانٍ أخر، فلا يعرف السامع أيها أراد" ٢١.

٥) التضمين: أشارت الصحيفة إلى ضرورة ألا يكون الكلام مضمّناً، و " التضمين أن يكون الفصل الأول مفتقراً إلى الفصل الثاني" ٢٢، أي ألا يقوم الكلام بذاته إلى معناه إلا من خلال تضمينه بكلام آخر يتبعه ليصل به المعنى.

٦) التحام الأجزاء: أشارت الصحيفة إلى ضرورة أن يربط الخطيب بين أول الكلام وآخره؛ لكي تتصل المقدمة بالخاتمة في وحدة الهدف، فإذا كان ذكوراً لأول كلامه، عالماً بما بدأ به وتوسط كانت أجزاء الكلام متصلة منسقة ملتحمة.

٧) الإحاطة واتساع الثقافة: تطلب الصحيفة من الخطيب أن يكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده، وأن ينظر في صناعة المنطق ليعلم بمجالاته، فيفيد بمقدار ما سيقدم، ويكون لديه سعة علم ومعرفة.

٨) الغلو والإفراط: أشارت الصحيفة إلى ضرورة النظر " في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح وعلى وجه الاستطراف والتظرف" ٢٣فلا غلو ولا إفراط ولا تفريط ولا استعراض قدرات وإنما استعانة بها.

هذه أبرز المحطات النقدية والبلاغية في الصحيفة الهندية، التي حاولت أن تضع مقاييس نقدية وبلاغية، إلا أن كثيراً من هذه المقاييس بقي يدل على عموم، ويرتبط بالذائقة أكثر من وجود أدوات محددة للقياس " ومنها ما لا سبيل إلى إدراكه كالاستعمالات التي شاعت بعد ذلك عن حلاوة اللفظ وكثرة الماء والرونق" ٢٤، وغير ذلك من الأطر العامة التي رأينا مثلها في الصحيفة، وهي أطر تبقى للذائقة السلطة الفعلية على التحكم بها.

ولعل من أهم ما جاءت به الصحيفة أنها تحمل " دلالة على سؤال علماء البلاغة عن بلاغة الهند، وعلى أنه كان بالعراق تراجمة يعرفون الهندية" ٢٥ ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل البلاغة العربية ذات جذور هندية؟

يرى البعض أن وجود تلك الصحيفة يعني أن العرب لم يعرفوا البلاغة إلا على يد تلك البعثة الطبية التي أحضرت الصحيفة معها وربما أحضرت معها صحفاً أخرى في النحو والصرف والعروض ٢٦، وهو كلام لا سند له إذ إن السائل عن البلاغة عند الهند وغيرها، يعرف ما لديه من البلاغة العربية، فهو لا يسأل عن علم غير معروف لديه.

المبحث الثالث

أثر الصحيفة في النقد الأدبي والبلاغي عند العرب

مجاورتها لصحيفة بشر ٢٧:

أخذت الصحيفة الهندية مكانها جنباً إلى جنب مع صحيفة بشر بن المعتمر، التي قررت " أشياء ستصبح مشتركة بين نقد الخطابة ونقد الشعر. منها اعتبار اللحظات التي يسمح فيها القول والابتعاد عن الكد والاستكراه، والملاءمة بين اللفظ والمعنى، فالمعنى الكريم يحتاج لفظاً كريماً، وليس ذلك بأن يكون المعنى من معاني الخاصة" ٢٨، وهذا ما نادت به الصحيفة الهندية أيضاً.

وكان للصحيفتين آثار كبرى تكاد تكون مشتركة في أغلب الأحيان، فقد أشارت صحيفة بشر إلى أن البليغ هو الذي يلائم بين المعنى والمستعمين، فلكل طبقة

كلام ولكل حال مقام، وكذا أشارت إلى تناسب المعاني مع هؤلاء المستمعين، وهو ما جاءت به الصحيفة الهندية، لذا كانت الصحيفتان متفقتين في كثير من الجوانب.

وعلى الرغم من أن صحيفة بشر اكتسبت أهمية أكبر في تلقيها عبر مسيرة النقد الأدبي والبلاغة العربية، إلا أن الصحيفة الهندية بحكم المجاورة إذ وردتا في المصدر ذاته، وبحكم التقارب الموضوعي، إذ تشابهتا في الطرح، كانت تُذكر كل منهما حين تذكر الأخرى.

في الخطابة والفصاحة والبلاغة:

رأينا أن نص الصحيفة كان موجهاً للخطيب، وامتلاكه لآلة البلاغة، والبلاغة والفصاحة صنوان، وهما ركنان لا تكون الخطابة الناجحة إلا بهما، فعلى الخطيب أن يكون فصيحاً " وبهذا يتضح لنا أن مفهوم الفصاحة في اللغة لا يختلف عن مفهوم البلاغة فهما مترادفان والمقصود منهما: الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد، والقول البليغ المؤثر، والتعبير الحسن الفصيح... ولذا فإنّ أكثر البلاغيين يرى أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن المراد بكل منهما: الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه" ٢٩.

والسمات التي يجب أن يتحلى بها الخطيب هي ذاتها السمات العامة للفصاحة والبلاغة، وكثيراً ما قيل عن خطيب ما: إنه من فصحاء العرب، وكثيراً ما نعت الخطيب بالبلاغة، ولا بد " للبليغ حتى يستحق وصف البلاغة من أمرين اثنين: أولاً، الطبع والموهبة: فلا بد أن يكون ذا موهبة وذكاء، له ذهن ثاقب، وحس متوقد، وخيال خصب. ثانياً، العلم المكتسب: ويكون تحصيله عن طريق القراءة والاطلاع ولا سيّما في علوم اللغة العربية وآدابها، مع معرفة بأحوال البشر وطبائع النفوس" ٣٠. وهذه الصفات تؤكد ما ذهبنا إليه في أن الخطابة والفصاحة والبلاغة كلها تعد من مقومات الخطيب الجيد.

في الإطار النقدي والإطار البلاغي:

أورد الجاحظ آراء كثيرة في البلاغة وتعريفها، فأورد تعريف كل من الفارسي والرومي والهندي، ومن ثم أورد الصحيفة الهندية، وبدأها بالسؤال عن البلاغة، فبدأت الإجابة بآلة البلاغة، مما عنى للكثيرين أن الصحيفة خاصة بالإطار البلاغي فقط، وإخضاعها للبعد النقدي هو إقحام.

والواقع أن " البلاغة مع النقد يكوّنان السبيل إلى فهم الأساليب المختلفة والإجادة في فنّيّ المنظوم والمنثور، لأن البلاغة لا تختلف عن النقد إلا من حيث المعالجة وطريقة العرض، أما موضوعهما فواحد وهو الأدب والكلام الأدبي" ٣١.

وعلى الرغم من أنّ البلاغة أصبحت علماً قائماً بذاته، وكذلك النقد، إلا أننا لا نستطيع قطع الصلة بينهما " لأنّ مقاييس البلاغة تعتبر أداة من أهم أدوات الناقد في فحص النص الأدبي من حيث هو تكوين لغوي، فيعرف بها ما إذا كان الأديب قد نجح في توظيف تلك المقاييس أو لم ينجح" ٣٢.

وبعد تشكل العلمين النقدي والبلاغي، واتسام كل منهما بسماته الخاصة، بقيت البلاغة من أهم مستلزمات الناقد، وبقي النص حافلا بالمعطيات التي تعين الناقد وتبصّره، حتى يميز الخبيث من الطيب.

مكانة الصحيفة عند الدارسين:

كان كتاب " البيان والتبيين" من أهم المصادر العربية وأكثرها تداولاً عبر مسيرة الأدب العربي، وقد كان نواة للعديد من العلوم والمعارف التي قامت على دراسة الأدب بأجناسه وأشكاله المختلفة، وكان ذلك مما أكسب الصحيفة ميزة كبيرة، إذ كانت حاضرة في معظم المؤلفات التي كتبت عن الكتاب أو عن صاحبه.

كما أن تجاورها مع صحيفة بشر بن المعتمر، والأهمية التي اكتسبتها تلك الصحيفة أسهما في إثراء الدراسات التي تناولتها، لا سيما أن الجاحظ أفاض في الحديث حول ما جاءت به الصحيفتان من بلاغة وفصاحة وإبانة وبيان، فتحدث عن ملازمة البلاغة للفصاحة، وملازمتها للطبع ومعرفة حقوق الكلام والمقام، وضبط النفس والقوى ساعة القول، فضلاً عن المعاودة والدربة ٣٣.

ووردت الصحيفة عند ابن قتيبة في " عيون الأخبار" ، كما وردت في " الصناعتين" للعسكري الذي أتبعَها بتوضيحات تبيّن ما فيها من أهمية، كما وردت في عدد كبير من مصادر الأدب منها كتاب " نقد النثر" لقدامة بن جعفر الذي أشار إلى مواصفات الخطيب الجيد، وذلك بأن يكون ساكن النفس، رابط الجأش، يعرف ما يريد بهدوء، ويكون ذكياً لماحاً مدركاً لموطن القول وموقعه، وسلامة لسانه من آفات النطق، وحسن الزي والهندام، ومقدرته على امتلاك زمام القول ٣٤، وهو

ما وجدناه في الصحيفة الهندية.

على أننا نجد في المصادر القديمة كثيراً من ملامح الصحيفة وإن لم تسمَّ، ولا سيما في معرض الحديث عن البلاغة، ومن ذلك ما نلمسه من كتاب " البلاغة" للمبرد، ومن ذلك قوله " حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول" ٣٥،

وفي العصر الحديث كثيراً ما نجد إشارات إلى الصحيفة، ولكن قلّما نجد من تناولها بالدرس والتمحيص، فقد أثبت نصّها أحمد مطلوب في كتابه " مناهج بلاغية" ٣٦ دون أن يعلق عليها، في حين أثبتها كاملة شوقي ضيف في كتابه " البلاغة تطور وتاريخ" ٣٧ وشرحها ، كما عرضت لها العديد من الدراسات والأبحاث التي أشرنا إلى بعضها في ثنايا هذا البحث، وبعضها عرض إشارات خجولة لا تعدو كونها تلميحاً عن وجود تلك الصحيفة.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن تراثنا ما زال يحتضن الكثير مما يستحق البحث والدراسة، وأن العروج إلى المستقبل لا يعني التنكر لما مضى، فهذه الصحيفة لا تعدو أن تكون صفحة في كتاب كبير هو " البيان والتبيين" ، ومع صغر حجمها إلا أن ما تطرحه من قضايا نقدية وبلاغية يعد كبيراً، بل إن بعضه أصبح قضايا ذات طروحات كبرى ألفت حولها الكتب والدراسات.

والصحيفة – وإن ترجمت عن الهندية- كان لها مساس مباشر بالبلاغة والنقد العربيين، على الرغم من أن النقد والبلاغة كانا يسيران في ظل مفهوم واحد.

كما توصلت الدراسة إلى كثرة دوران الصحيفة على الألسنة وفي بطون الكتب جنباً إلى جنب مع صحيفة بشر بن المعتمر التي تعد عربية أصيلة، إلا أن الأولى لم تحظ بدراسات مخصصة كما حظيت صحيفة بشر.

كما بينت الدراسة أن العرب آنذاك كانوا قد عرفوا الترجمة على ألسنة مختصين، وعلى ذلك الاهتمام المنقطع النظير بالبحث والتنقيب والكتابة والتأليف، وما رافق ذلك من ترجمة عن اللغات الأخرى.

وخلصت الدراسة إلى أن الصحيفة تطرح قضايا نقدية وبلاغية كبرى، سواء أكان ذلك في الخطابة أم البلاغة أم النقد، إلا أن السؤال الذي ما زال يؤرق صاحب هذه الدراسة: هل لهذه الصحيفة أصل هندي مكتوب؟ وهل هناك مخطوط في مكان ما يبيّن هذه الصحيفة في لغتها الأمّ؟ لعلّ مختصّاً ينبري في المستقبل للإجابة على هذا السؤال!

الهوامش

١) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٥، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٥: ج١ ص ٩٢، وكذلك انظر نص الصحيفة في الصفحة ذاتها. وانظر نصها في الصناعتين للعسكري ص٢٩ وعيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٧٣

٢) نفسه، ص٨٨

٣) صمود، حمادي: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، السلسلة السادسة، ١٩٨١: ص ٦٨.

٤) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر: مادة (ب ل غ).

٥) البوشيخي، الشاهد: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢: ص٨٩.

٦) عبد الرحمن، منصور: اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩: ص٩٨.

٧) صمود، حمادي: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس: ص ٦٧.

٨) أمين، أحمد: النقد الأدبي، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧: ص ٤٧٠.

٩) الجاحظ، عمر بن بحر: البيان والتبيين:ج٣ ص ١٤.

١٠)عزام، محمد: مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥: ص٦.

١١) بناني، محمد الصغير: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣: ص٢٢٩.

١٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٦٥هـ): كتاب الصناعتين، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢: ص ٢٠-٢١.

١٣) نفسه : ص٢٣.

١٤) ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، د.ت: ص٣٧.

١٥) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين: ص٢٩.

١٦) نفسه: ص٢٩.

١٧) ينظر صمود، حمادي: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس: ص ٦٨.

١٨) عزام، محمد: مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي، ١٩٩٥، منشورات وزارة الثقافة، دمشق: ص١٥.

١٩) البوشيخي، الشاهد: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: ص٨١.

٢٠) ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ: ص٣٧.

٢١) العسكري، أبو هلال: كتاب الصناعتين: ص٢٩.

٢٢) السابق: ص٣٦.

٢٣) الجاحظ، عمر بن بحر: البيان والتبيين:ج١ ص ٩٢.

٢٤) مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، د. ت: ص٣٨٥.

٢٥) حسين، طه وآخرون: التوجيه الأدبي، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٤: ص ٢٢٠.

٢٦) انظر، أحمد، محمد نايل: البلاغة بين عهدين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤: ص ٨٤-٨٦.

٢٧) انظر صحيفة بشر في : الجاحظ، عمر بن بحر: البيان والتبيين:ج١ ص ١٣٥-١٣٩.

٢٨) عباس، إحسان: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٢: ص٦٧.

٢٩) فيود، بسيوني عبد الفتاح: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار - القاهرة ودار المعالم الثقافية- الأحساء، ١٩٩٨: ج١ ص١٤.

٣٠) باطاهر، بن عيسى: البلاغة العربية مقدمة وتطبيقات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٨: ص٣٢.

٣١) مطلوب، أحمد: دراسات بلاغية ونقدية، دار الرشيد للنشر وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٦٠: ص١١.

٣٢) الربيعي، حامد صالح خلف: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، سلسلة بحوث اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٦: ص٤١.

٣٣) انظر: عبد الرحمن، منصور: اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية وحتى نهاية القرن الرابع الهجري: ص١٠١-١٠٣.

٣٤) ابن جعفر، قدامة (ت ٣٢٧ هـ): نقد النثر، تحقيق عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢: ص٩٥-٩٦.

٣٥) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) : البلاغة، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٦٥: ص٥٩.

٣٦) مطلوب، أحمد: مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣.

٣٧) ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ: ص٣٦-٣٧.

المصادر والمراجع

أولاً، المصادر:

- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٥، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٥.
- ابن جعفر، قدامة (ت ٣٢٧ هـ): نقد النثر، تحقيق عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت ٤١٣ هـ أو ٤٥٣هـ): زهر الآداب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٣.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٦٥هـ): كتاب الصناعتين، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ): عيون الأخبار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٦٤.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) : البلاغة، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٦٥.
- ابن منظور (ت ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ثانياً، المراجع:

- أحمد، محمد نايل: البلاغة بين عهدين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤.
- أمين، أحمد: النقد الأدبي، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.
- باطاهر، بن عيسى: البلاغة العربية مقدمة وتطبيقات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٨.
- البوشيخي، الشاهد: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢.
- بناني، محمد الصغير: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣.
- حسين، طه وآخرون: التوجيه الأدبي، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٤.
- الربيعي، حامد صالح خلف: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، سلسلة بحوث اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٦.
- صمود، حمادي: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، السلسلة السادسة، ١٩٨١.
- ضيف، شوقي: البلاغة تطور وتاريخ، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- عباس، إحسان: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٢.
- عبد الرحمن، منصور: اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩.
- عزام، محمد: مصطلحات نقدية من التراث النقدي العربي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥.
- فيود، بسيوني عبد الفتاح: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار – القاهرة ودار المعالم الثقافية- الأحساء، ١٩٩٨.
- مطلوب، أحمد:
  ١) دراسات بلاغية ونقدية، ط١، دار الرشيد للنشر وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٦٠.
  ٢) مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣.
- مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، د. ت.